الخاتمة

قبل أن أضع القلم إيذاناً بالفراغ من هذه الدراسة، يجدر بى أن أقدم عرضاً موجزاً لأهم نقاطها، وأبرز ما وصلت إليه فيها من نتائج لم أسبق — فيما أعلم — إليها :

١ — فرقت بين نوعين من الشعر فى صدر الإسلام : أحدهما تأثر بالإسلام، وحرص شعراؤه على ترسم تعاليمه فى نتاجهم، وهذا هو الشعر الذى يمكن أن تصدق عليه الدعوى القائلة بضعف الشعر فى صدر الإسلام .

وأما النوع الثانى : فقد ظل بعيداً عن تعاليم الإسلام، كما ظل امتداداً للشعر الجاهلى، فى أغراضه، ومعانيه، وخياله، ونسجه، وهو يتمثل أكثر ما يتمثل فى شعر كثير من شعراء البادية ومنهم شاعرنا .

٢ — فى كلامى عن البيئة التى عاش فيها الشماخ أمكننى أن أبرز العناصر التى أثرت فى شعره، وكانت واضحة فيه، كطبيعة الصحراء، وظروف الحياة فيها، وما غرسته فى البدو من مثل وتقاليد وقيم، وأنظمة حياة . . .

٣ — وقد تعرضت لأثر الإسلام فى البدو، واستطعت أن أدلل على أن هؤلاء البدو لم يتأثروا بالإسلام فى فترة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يكن قد تمكن بعد من التغلغل فى ضمائر الكثيرين منهم، أما فى عهد الخلفاء الراشدين — أو على وجه الدقة فى الفترة التى شغلتها حياة الشماخ من عهد الخلفاء الراشدين — فقد ظلت معرفة كثير من البدو للإسلام سطحية، وإن وجد إلى جانب هذه الكثرة قلة منهم استجابت قلوبهم للإسلام، فنبذوا العصبية القبلية، والعادات الجاهلية، وتخلقوا بخلق الإسلام، وترسموا خطا الدعوة الجديدة، واستطعت من خلال ذلك أن أصل إلى أن الإسلام لم يقض تماماً فى هذه الفترة (صدر الإسلام) على النزعات الجاهلية فى البادية، وإن استطاع أن يخيفها، ويشدد النكير عليها، ويهددها بماله من سلطة قوية، كانت تتمثل فى حكومة مركزية مرهوبة الجانب، نافذة الحكم .

كذلك فرقت بين نوعين من البدو، بالنسبة لتأثر حياة البدو الاقتصادية والمعيشية والحضارية بالإسلام .

فالبدو الذين ظلوا فى البادية ، ولم يخرجوا إلى الأمصار الإسلامية لم تتحسن أحوالهم المعيشية ، إن لم تكن قد ساءت قليلا بسبب ما فرض عليهم من التزامات مالية جديدة، كدفع الزكاة . وبما ضيق عليهم فيه من تحريم السلب والنهب ، والاعتداء بعضهم على بعض .

أما الذين خرجوا من البادية إلى الأمصار الإسلامية، عن طريق الاشتراك فى الجيوش الإسلامية، التى فتحت الممالك المجاورة للجزيرة العربية ، أو عن طريق الهجرة فقد تحسنت أحوالهم المعيشية ، بما أصابوا من غنائم أو فىء، كما أصابوا شيئاً من التأثر النفسى والحضارى ، بما شاهدوه فى البلاد المفتوحة ، وإن ظل شعر الشعراء منهم — ومنهم شاعرنا — لاصقاً بالبادية ، بعيداً عن التأثر بالمؤثرات الحضارية التى تعرضوا لها فى تلك البيئات الجديدة .

٤ — وكانت قبيلة الشماخ موضوعاً لدراستى ؛ فأبنت فى هذه الدراسة مركز ذبيان بين القبائل القيسية ؛ وأوضحت ما كانت تتمتع به بين هذه القبائل من سطوة ، وعز وجاه ، ثم عرّجت على موقفها من الإسلام ، وكيف أنها كانت فى مقدمة القبائل القيسية التى ناوأت الإسلام ، وجدّت فى محاربة المسلمين فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم عقب وفاته ؛ حيث كانت على رأس القبائل التى سارعت إلى الارتداد عن الإسلام .

٥ — أما عن دراستى لحياة الشماخ فقد استمدت مقوماتها مما وصل إلينا من خبره ، ومما بين أيدينا من أدبه ؛ وقد استطعت أن أصل فيها إلى عدة نتائج غيرت بعض المفاهيم الخاطئة عن حياته . كما أضاءت كثيراً مما كان غامضاً من جوانبها ، وربطت بين حياته ، وبعض الاتجاهات البارزة فى شعره ومن ذلك :

تأثره بفقد والده فى صباه . فقد صبغ هذا الحدث حياته بصبغة حزينة ، تتجلى على الأخص فى نسيبه، ونظراته إلى الحياة والناس فى شعره ، كما لوّن حياته الباكرة بلون فيه من الجدّ أكثر مما يكون عادة فى حياة الصبيان، الذين يعيشون فى كنف عائلهم، وقد ظلت هذه الصبغة وهذا اللون ملازمين للشماخ فى حياته كلها ، فعاش حريصاً على السعى فى سبيل إصلاح ماله ، والحرص عليه ، مما كان له أثره

فى غلبة الإخفاق على حياته الزوجية والعاطفية ، كما كان له أثره فى انطواء الشاعر على نفسه ، وبعْده — إلى حد ما — عن الاندماج فى الحياة العامة . وانعكس هذا كله على أدبه فجاء خُلُوًّا مما يعرف بشعر الحماسة ، كما ضعفت نغمة التعبير عن الوجدان الجماعى فى شعره — مديحاً ، وهجاء ، وفخراً — سواء فيما يتصل بالحياة الجاهلية أو الحياة الإسلامية ؛ ومن ثم نجد الوصف هو اللون الغالب على شعره ، فقد كان يجد فيه تنفيساً عن ميوله الفنية ، ووجهاً من وجوه السلوى والرياضة التى يتلهى بها عن نفسه .

وفى مناقشتى لما ذهب إليه بعض القدماء ، من أن الشماخ كان صحابيًّا ، أمكننى أن أدلل على أن الشماخ لا صحبة له ، بمفهوم الصحبة الذى ارتضاه أهل العلم ؛ إذ لم يثبت حتى مجرد رؤيته للرسول صلى الله عليه وسلم ولو مرة واحدة ، ولم يرو عنه شيئاً من قوله .

كذلك لم يفتنى أن أصحح خطأ قديماً شائعاً ألصق بحياة هذا الشاعر إلصاقاً ، وهو ما قيل من أنه كان هجَّاء فاحش الهجاء ، حتى لقد هجا قومه ، وضيفه ؛ وأثبت أن هذا الوصف إنما هو لُمزرِّد أخيه ، وأن هذا خلق كان الشماخ بريئاً منه .

كما ناقشت ما ذهب إليه بعض الباحثين من الربط بين الشماخ وبين الحطيئة ، من حيث الحرص على التكسب بالشعر ، والإسراع إلى نهش الأعراض ، والاستخفاف بالدين ، وسقت الأدلة من حياته وشعره على أن هذه الدعوى فيها كثير من الإسراف والتجنى على الشاعر .

وفى محاولتى التأريخ لوفاة الشماخ ، استطعت أن أدلل على خطأ ما ذهب إليه جورجى زيدان وغيره ، من أن وفاته كانت سنة ١٨ هـ ، وكذلك ما ذهب إليه خير الدين الزِّرِكلى ومن تبعه ، من أن وفاته كانت سنة ٢٢ هـ . ورجحت أن وفاته كانت بين سنتى ٣٠ و ٣٢ هـ .

وكان وكدى فى هذه الدراسة أن أربط بين حياة الشماخ وبين نتاجه الفنى ، واتجاهه فيه .

٦ — فى دراسة فنون شعر الشماخ ورجزه ، أوضحت أن شعره يمثل فى البادية شعر البديهة والارتجال ، والطبع المتدفق البعيد عن التنقيح والمعاودة ، والذى كان يقابل

فيها شعر المجوّدين الذين كانوا ينقحون شعرهم ، ويصدرون فيه عن رويّة، وأولئك هم شعراء المدرسة التى عرفت فى تاريخ الشعر العربى القديم بمدرسة المجوّدين ، والتى أسسها أوس بن حجر ، وحمل لواءها زهير بن أبى سلمى والنابغة الذبيانى ، وكعب بن زهير ، والحطيئة . . .

وقدمت لهذه الدراسة بإحصائية ، تدل على أن الوصف يغلب على نتاجه الشعرى كله . وأنه يمثل نحو ثلثى هذا النتاج ، وقد سبق أن فسرت علة هذا الاتجاه .

ويتبين من دراسة فن الوصف فى شعره ورجزه، أنه هو الفن الذى تظهر فيه شخصية الشماخ الفنية ، ومذهبه الشعرى ، وبخاصة وصف الحمر الوحشية والقوس ثم الناقة .

فى وصف الحمر الوحشية أبدع الشماخ فى تصوير كثير من الحركات النفسية ، وما يرتبط بها طبيعيًّا من حركات حسية لهذا الحيوان ، كما برع فى عكس كثير من مشاعره ، وتجاربه النفسية والعملية على مرآة من نفس هذه الحمر ، حتى لكأنما أصبح هذا الحيوان جزءاً من نفسه . وهو فى وصفه لها يشخص لنا صفات هذا الحيوان، وطباعه، وحركاته، تشخيصاً قويًّا يبرزه للقارئ حتى كأنما يراه بعينيه، ويسمع صوته بأذنيه . .

وفى موضوع القوس تجلت عبقرية الشماخ ، وسحر بيانه ، وإخلاصه لفنه ، ويعد شعره فى القوس من روائع الخيال ، ومن جواهر الشعر العربى القديم ، فقد بث فى هذا الوصف كثيراً من العواطف والأحاسيس والطبائع الإنسانية ، من خلال وصف ساحر بارع، استغل فيه تصوير واقع محسوس، بطريقة تتيح للقارئ أن يحلق مع الشاعر فيرى بعينيه ، ويحس بإحساسه ، ويعيش معه تجربته، وتلك سمة الفنان الأصيل .

وانتهيت من دراسة شعره فى الناقة إلى أنه لم يختلف كثيراً عما أجمع عليه الشعراء من سابقيه ومعاصريه فى وصفها ، اللهم إلا فى صيغ العبارات وبعض الجزئيات ، فمعظم أوصافه لها رددها من قبله طرفة بن العبد ، وأوس بن حجر ، وزهير بن أبى سلمى ، والمثقّب العبدى . . . وغيرهم فكلهم يتشابهون فى وصف نياقهم على ما بينت فى الدراسة هناك .

وهذه الموضوعات الثلاثة هى التى استغرقت معظم قوله فى الوصف ، وبرزت فيها بعض ملامح الوصف الوجدانى ، مما يبيح لنا أن نعتبر الشماخ من روّاده المبكرين وبخاصة فى موضوع الخمر والقوس . وأسلوب الشماخ فى الوصف يمثل أسلوب الوصف الجاهلى فى البادية ، من حيث غرابة اللفظ ، وجزالته ، وخشونة كثير من الصور وبداوتها ، واستخدامه للتشبيه الحسى فى التصوير ، سواء الاستطرادى منه أم المباشر ، وكذلك استخدامه للنعوت الحسية . . . إلى غير ذلك ، مما فصلته فى موضعه ، وإن برزت له بعض الخصائص التى ينفرد بها ، من مثل قصده إلى الوصف قصداً حتى ليكاد يقصر عليه بعض قصائده ، مخالفاً فى ذلك أسلوب القصيدة الجاهلية ، التى لم يكن الشاعر يتصدى فيها للوصف مباشرة ، ويخصه بقصيدة مستقلة ، هذا إلى جانب إسرافه فى استخدام التشبيه الاستطرادى والنعوت الحسية . كما امتاز بنشاط خياله من وراء حسه ، فى بعض الصور التى تولاها بوجدانه فأبدع وحلّق .

أما النسيب فهو الفن الثانى فى شعره ، من حيث كثرة ما ورد له فيه من شعر ورجز ، وهو فى نسيبه قد استجاب إلى نداء العاطفة الصادقة حيناً ، وإلى دواعى الصنعة أحياناً ، فكان أسلوبه فيه أسلوب بدوى عفيف يحاول أن يتظرف بالتغزل ، فيرق حيناً ، ويجفو حيناً آخر ، ويلتصق خياله بحسه فى كل الأحيان .

وقد خص بمعظم مديحه وأجوده — على قلته — عرابة بن أوس ، وهو فى هذا المديح يسلك مسلك سابقيه ، من حيث الوصف بكثير من الفضائل النفسية والإنسانية ، ويمتاز مديحه من بين فنون شعره بسهولة الألفاظ — بصفة عامة — وبارع الإيجاز ، وبخاصة فى مديحه لعرابة الأوسى ، وإن كان قد عيب عليه فى هذا الفن إطالة المقدمة .

ولم يخرج فى معانى مدحه عما كان يشيد به الشعراء فى بيئته من قبله ومن بعده .

وشعره فى الفخر قليل ، ويعد فى مجموعه من قبيل الفخر الذاتى ؛ فقلما شغل فيه بتمجيد قومه ، شأنه فى ذلك شأن المديح والهجاء والرثاء كما سبق أن بينت .

وهو فى فخره الشخصى هذا قد يخرج إلى حد الغرور الكاذب ، والادعاء

الباطل — ويظهر ذلك أيضاً فى بعض مدائحه لعرابة الأوسى — وقد استمد عناصر فخره من القيم السائدة فى البيئة البدوية، وهو كذلك فى كل فنونه الأخرى ؛ مما جعل شعره يمثل البادية تمثيلا صادقاً فى كثير من جوانب الحياة فيها .

وهجاؤه أقل من مديحه وفخره ، وأهم ما يلفت النظر فيه أنه لم يكن فيه بادئاً بالعدوان ، فهو إما مدافع راد لما وقع عليه من عدوان ، أو مستثار ، كما يلاحظ أن التهديد بالهجاء فى شعره ورجزه أكثر من الهجاء بالفعل ، وقد عللنا ذلك بخوفه من الوقوع تحت طائلة العقاب من السلطة الإسلامية الممثلة فى الخليفة إذ ذاك ، وهجاؤه وتهديده يغلب عليهما التهكم والسخرية ، وتغلب عليهما العفة والبعد عن الفحش ونهش الأعراض .

أما شعره الذى عبر فيه عن نظراته فى الحياة والناس فقد استوحى فيه تجارب حياته ، وهو يدل على حنكته ، وصدق نظره ، وتعبيره عن هذه التجارب يسير على نهج سابقيه، من حيث إيجاز اللفظ ، ووضوح المعنى ، وجودة العبارة ، وإصابة القصد ، مع الاعتماد على التشبيه والتمثيل .

وليس للرثاء فى شعر الشماخ مكانة تذكر، فهو على ندرة ما قال فيه ، يرجع إلى حافز شخصى وإحساس فردى، حيث كان مرثيه الوحيد (بُكَيْر بن عبد الله ابن الشّداخ) قائداً من قواد المسلمين فى فتوح آذربيجان ، وأرمينيّة ، وقد لازمه الشماخ فى كثير من المواقع الحربية، التى دارت فى هذه البلاد ، وشهد وفاته فى إحدى هذه المعارك . فرثاه رثاء حارٍّ، يعبر عن أسًى عميق، وعاطفة ملتاعة، ورثاؤه هذا كالرثاء الجاهلى، يعتمد على تعديد المناقب التى كان يحترمها العربى القديم ، ويجلّها فى الرجل ، ولا يظهر فيه رثاء المسلم والقائد المجاهد فى سبيل الله، وهو فى هذا أيضاً بعيد عن الوجدان الجماعى، الذى لا نجد له صدى فى شعره كله تقريباً .

وأخيراً حاولت أن أبين منزلة أدب الشماخ فى موكب الشعر العربى القديم ، فأوردت أقوال القدامى من الرواة والعلماء بالشعر فى شعر الشماخ ، وشاعريته ، وهى تكاد تجمع على أنه من أحسن الشعراء وصفاً للحمر الوحشية ، والقوس ، ومن المجيدين فى وصف الناقة، كما أوردت نماذج من شعر الشعراء المتأخرين عن

الشماخ تدل على تأثرهم به فى بعض المعانى واللمحات الفنية .

وحسبى أن أكون فى هذه الدراسة قد وفقت فى كشف الغموض الذى كان يلف أدب الرجل، وقدمت ما يسهم فى خدمة تاريخ أدب هذه الفترة من فترات أدبنا العربى .

والله أسأل أجر المجتهدين .